

أدب الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

د. حامد أشرف همداني ☆

Abstract

Sayings of the Holy Prophet (PBUH) in addition to their juristic importance have immense literary importance. Sayings' study has great significance for students of Arabic language & literature to gain profundity in the subject. In this article, Islamic scholars' perspective has also been incorporated regarding the study of the sayings in reference to its diction, grammar and inference. Moreover, rhetoric elements employed by the Prophet through his sayings have been discussed. Besides, the study of overall impact of his sayings on Arabic language & literature, his addresses, sayings and comprehensive words have also been presented to strengthen the argument in this regard.

إن "الحديث" اسم شامل لجميع ما روي عن النبي ﷺ - من أقوال وأفعال وتقارير وصفات، فهو بهذا المعنى يرادف "السنة" (١) وأما الحديث الذي عُني بالبحث عنه ههنا فالمراد به - طبعاً - هو أقوال الرسول ﷺ - لأننا نبحث في أدبه عليه السلام، وتقاريره، وما وصفته الصحابة من أفعاله إنما هي كلام صحابته دون كلامه - عليه السلام.

☆ الأستاذ المشارك بالقسم العربي، الكلية الشرقية، جامعة بنجاب، لاهور

ضرورة دراسة الحديث النبوي

- إن دراسة الحديث أمر ضروري لطالب العلم سواء أكان متخصصاً في الشريعة أم في العربية أم في التاريخ، أما ضرورته للتخصص في الشريعة فواضحة. وأما بالنسبة لطالب العربية فستطيع أن نجمل الدواعي لدراسته فيما يأتي:
- ١- لأن تأثير الحديث النبوي على ثقافتنا العربية يفوق كل تصور، فلقد صبغت طريقته كل فنون ثقافتنا ومعارفنا، إنك تجد طريقة السنة عمّت كل أنواع الكتب في مكتبتنا من أدبية وتاريخية وغيرهما إذ تعتمد السند في إيراد أخبارها مثل كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، و"الأمالي" لأبي علي القالي و"تاريخ الرسل والملوك" لابن جرير الطبري، بل إن كثيراً من العلوم ما كان ليوجد لولا الحديث، فطبقات الرجال وكتب التاريخ وكتب التراجم والسيرة كل هذه ثمرات الحديث النبوي، يقول الدكتور شوقي ضيف: فالحديث هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية، وهياً لظهور كتب الطبقات في كل فن، وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث، وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه، مما بعث على نهضة علمية رائعة. (٢)
 - ٢- لأن الحديث النبوي من بليغ ما أثر في لغتنا، ومن أرفع النصوص الأدبية بياناً وإشراقاً بعد القرآن، والدراسة المفيدة المجدية للغة العربية هي الدراسة التي تجعل الطالب يتخرج بالنصوص الجميلة وتصله بها، حتى يتأثر بأساليبها وطريقتها في القول. (٣)
 - ٣- لأن علوم العربية وآدابها إنما كانت من أجل خدمة القرآن والحديث، بل إننا نستطيع أن نقول: إن كل ما في ثقافتنا من تنوع وتعدد وتلون في العلوم والفنون والمعارف إنما كان لخدمة القرآن والسنة.

- ٤- لأن هناك التحاماً وثيقاً بين العربية والعلوم الإسلامية، وكل دارس للعربية لا يُعدُّ واقفاً على أسرارها ما لم يشارك في العلوم الإسلامية الأخرى.
- ٥- لأن الحديث النبوي من الأصول التي يستشهد بها على قواعد اللغة.
- ٦- لأن قواعد علم المصطلح التي وضعها أجدادنا المسلمون تعلم المنهجية في الحكم على الأخبار دون أن يكون تأثيراً ياعتبار آخر غير تطبيق تلك القواعد. (٤)

البلاغة النبوية وأسبابها

كل إنسان قرأ شيئاً من العربية، وكان عنده شيء من عقل وعدل وذوق، حكم أن القرآن الكريم أفصح كلام، وله المقام الأول، وأن للحديث النبوي المقام الثاني بعده. وعلماء الأدب والمارسون وصلوا إلى هذا الحكم بعد أن درسوا أقواله وأسلوبه الدراسة العلمية الموضوعية وقارنوها بالقرآن الكريم من جهة، وبكلام العرب الفصحاء من جهة أخرى.

كان سبيل العلماء إلى هذه النتيجة منهجهم في كل دراسة أدبية مماثلة، فيها دراسة البيئة العامة والخاصة للأديب، وفيها دراسة شخصيته وأطوار حياته، والمؤثرات المختلفة التي أثرت فيه، والأسباب المباشرة وغير المباشرة في نشوء الأثر الأدبي المراد دراسته. ولم يختلف منهجهم في دراسة الأسباب لفصاحة الرسول ﷺ عن دراستهم لأي أديب آخر.

وممارآه العلماء في أسباب فصاحة محمد ﷺ أنه كان قرشياً هاشمياً وقريش من أفصح قبائل العرب، وبلغتها نظمت المعلقات، وعلى لسانها دار حديث الشعراء في عكاظ. وإضافة إلى هذه الفصاحة الموروثة ترشف محمد ﷺ فصاحة أخرى في بني سعد موطن رضاعه، وفي بني زهرة موطن أخواله، وفي بني أسد أهل زوجه السبيلة خليجة، وفي بني عمرو - وهم الأوس والخزرج - موطن

مهاجرته إلى المدينة المنورة. وبعد هذا كله، فهناك أمران ثانيان، أو سببان كبيران: تلمذته للقرآن وفطرة محمد ﷺ. (٥)

عوامل تكوين أدب النبي ﷺ

إن نصوص بلغاء الناس إنما تشير إلى خصائصهم الذاتية والموضوعية والأدبية، وتجلي لنا كثيراً من ملامح شخصياتهم النفسية والفكرية والوجدانية والأدبية، وتصور أصحابها تصويراً لفظياً يتبينه كل من يقرأها ويدرسها، وذلك بالطبع لأن الأدب يستمد قوته من نفسية الأديب وسجيته ووجهات نظره، وأفكاره وأخيلته، وشعوره ووجدانه.

فأما ما يتعلق بنفسية الرسول وغريزته فقال أبو عمر أحمد بن محمد، وما أحسن ما قال: ... وقد أدب الله نبيه بأحسن الآداب كلها، فقال له: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ (٦)

فنهاه عن التقدير كما نهاه عن التبذير وأمره بتوسط الحالين، ... وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ جوامع الكلم في كتابه المحكم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات منه، فقال: ﴿خذنا العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (٧)

ففي أخذه العفو صلة من قطعه والصفح عمن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغيض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب؛ وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن ممارسة السفية، ومنازعة اللجوج، ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه باللين في عريكته والرفق بأمته، فقال: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (٨)

وقال: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (٩)

وقال: ﴿لا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (١٠)

فلما وعى عن الله وملكت فيه هذه الآداب، قال الله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ (١١)

وإذا استقصينا كلام الرسول عليه السلام. وجدناه مطبوعاً بطابع تلك التعاليم والتأديبات والتشقيقات، التي صيقلت بها نفسه وتأدب لسانه، وهي تتبلور فيه في أروع مظهر وأبهى جمال، ورأينا أن كلامه كله دين وتقوى وهماية ونور وروحية وحياة، وقوة وجمال، وكأنه هو ما يعنيه الرسول بقوله: "إن من البيان لسحراً". (١٢)

وهذا هو العامل الروحي التربوي الذي لم تدركه عقول الناس وقد أعيت بالبحث عنه، حتى لقد قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ: لقد طقت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفصح منك فمن أدبك؟ (١٣) وحتى لقد قال له علي رضي الله عنه وسمعه يخاطب وقد بني نهدي: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي. (١٤)

وإلى ذلك أنه تقلب رسول الله ﷺ في أخلص القبائل منطقاً، وأعدبها بياناً: فولد في بني هاشم ونشأ في قريش المشهود لها بالمكانة العليا في لهجات العرب ولغاتهم، واسترضع في بني سعد المعترف لها بأنها أفضل الأسر القرشية منطقاً وفصاحة، فكان بالفطرة أفصح العرب لساناً، وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يزيغ حديثه ولم يدفع قوله فقال: أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر. (١٥)

لقد توافرت للحديث كل أسباب الجودة وسنحاول فيما يأتي إيضاح ذلك في: الأداء، والمعنى، والأسلوب. ونتحدث أولاً عن الأداء:

أ. أداء الرسول ﷺ للحديث

لم تكن فصاحته ﷺ مقصورة على جودة الأسلوب، وعمق المعنى، بل جاوزت ذلك إلى الأداء، فكان ﷺ ضليع القم، يستعمل فمه جميعاً إذا تكلم، ولا يقتصر على تحريك الشفتين فحسب، وكان عليه الصلاة والسلام طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، وإذا تكلم لم يسرد سرداً، بل فصل وتمهل وأبان ورتل.

روى البخاري والترمذي عن أنس: أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً. (١٦) ولو أراد العاد أن يحصي كلماته لأحساها. (١٧) وكان كلامه فصلاً يفهمه كل من سمعه (١٨) وتقول السيدة عائشة: إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم. (١٩)

وكان يعطي الكلام ما يستحق من اللهجة حتى إن ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه، وصفه جابر فقال: "كان إذا خطب احمرت عيناه، وعلاصوته، واشتد غضبه، كأنه منبر جيش يقول: صبّحكم ومساكم". (٢٠) وكان لحر كته وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء، فحر كته معبرة تستلفت النظر وتنبيه الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر.

فإذا أراد ذكر القلب مثلاً أشار إلى صدره، كما في قوله ﷺ "التقوى ههنا". (٢١) وإذا أراد الملازمة أشار بسبابته والتي تليها كما في قوله ﷺ "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. (٢٢)

وإذا أراد وصف رضاع الطفل وضع سبابته في فيه، كما في الحديث

الطويل الذي رواه البخاري ومسلم : (ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع) يقول راوي الحديث: "فكأنني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمضئها. (٢٣)

وإذا أراد أن يؤكد أهمية الموضوع، غير جلسته كما في حديث شهادة الزور "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟... قلنا: "بلى يا رسول الله"... قال: الإشراف بالله وعقوق الوالدين" وكان متكئاً فجلس فقال: "ألا وقول الزور". فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. (٢٤)

وكان ينفعل بكلامه فيبتسم إذا كان في حديثه ما يوجب ذلك، ويبكي إذا كان في كلامه ما يوجب ذلك. (٢٥)

وكان لشخصية الرسول الجذابة أثر كبير في كون الأداء قد بلغ النورة، فقد ورد في وصفه ﷺ أن له هيبه وجلالاً فإذا تكلم بين أصحابه كانوا كأن علي رؤوسهم الطير. (٢٦)

ب. معاني الحديث

إن في معاني الحديث صفات عديدة قل أن تجتمع في كلام سواه ومن هذه الصفات: الغنى في الأفكار، والعمق، والجللة، والإحكام والانسجام والتسلسل، والغوص في أغوار النفس الإنسانية وملامسة أبعاد هذه النفس، مما مكن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر. ولنتحدث بإيجاز عن كل صفة من هذه الصفات.

١. الغنى في الأفكار والمعاني

نرى في الحديث النبوي غنى مدهشاً في الأفكار والمعاني، فمعاني الحديث الواحد كثيرة متنوعة، ومما يدل على ذلك ما نجده في استنباط العلماء للأفكار والأحكام العميقة من الحديث الواحد. وهذه الظاهرة عامة في معظم الأحاديث إذ نجد أن المعاني تزدهم في العبارة الحديثية. أما إذا نظرنا إلى معاني

الأحاديث بشكل عام فإننا نجد غنى في هذه المعاني رائعاً. ذلك أن السنة لم تترك معنى من معاني الحياة والعقيدة والتشريع والخلق إلا وقررتة وفصلت فيه القول.

٢ . عمق الأفكار

وأما عمق هذه الأفكار فذلك واضح من موازنة معاني الحديث بمعاني الشعر الجاهلي أو السجع المعروف في ذلك الزمان. إننا نلمس في الحديث الحقيقة مجردة واضحة بيّنة، ولا يدع الحديث جانباً من الفكرة مهما دقّ دون أن يسقط عليه الأنوار الكاشفة.

وهكذا فإن الحديث أدب عميق كلما أمعنت النظر فيه وقمت منه على جميد، وما أجمل كلمة الرافعي فيه: (إنه كلام كلما زدت فيه فكراً زادك معنى). (٢٧)

٣ . الجِدَّة

معظم ما في هذه الأحاديث من معانٍ جميدٍ جدّة فاجأت الدنيا كلها ولم تفاجىء العرب وحدهم، فالدعوة إلى المساواة دون تمييز معنى جديد، نأخذه من قوله ﷺ: "والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (٢٨)

٤ . الإحكام

يروعنا في معاني الحديث ما نلاحظه فيها من الإحكام، ونريد بالإحكام أن يكون المعنى صحيحاً في نفسه، مصيباً الحقيقة ذاتها، فيلازم المعنى المؤدّى الحقّ مهما تغيرت الأحوال وتبدلت الظروف ويكون صادقاً أبداً، لا يتحقق في زمن لأوضاع معينة ومناسبات موقوتة، ثم تفارقه صفة الصدق إذا جدت أوضاع ومناسبات أخرى، وكذلك نريد بالإحكام أن يكون المعنى ملماً بالحقيقة من كل أطرافها، فلا تفوته ناحية ولا يند منه جانب، ومما يتصل بالإحكام أيضاً الدقة

المتناهية والانسجام والتوافق والتسلسل، فكلامه صلى الله عليه وسلم بريء من التناقض والتناقض والاختلاف، وقد بلغت المعاني النبوية من الإحكام والانسجام والتسلسل مبلغاً عظيماً يجعل جزئيات معاني الحديث الواحد مترابطة محبوسة يشد بعضها إلى بعض تماسك متين، فكل جزئية من المعنى متممة لما قبلها، ممهدة لما بعدها.

ولنقرأ هذا الحديث: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً". (٢٩) والحديث: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم". (٣٠)

٥- ومعاني الحديث تغوص في أغوار النفس الإنسانية، وتلامس أعماقها وأبعادها، وتؤثر فيها تأثيراً عظيماً، إن حديثاً واحداً كان يكفي لتغيير حياة إنسان تغييراً جذرياً أصيلاً، وكان يكفي ليصوغه من جمليد، لأن معانيه كانت تهز وجدانه هزاً عنيفاً، وتؤثر فيه، وتتغلغل في أعماق نفسه، ولذا فإن أثر الحديث مستمر.

ومصدق ذلك هذا الحديث: عن النواس بن سميعة قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم، فقال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس". (٣١)

وعن ابصه بن معبد قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "جئت تسأل عن البر؟" قلت: نعم، قال: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". (٣٢)

٦- وأخيراً فإن هذه المعاني الحديثية إنسانية لم تخضع في جوهرها وأسسها الأولى لظرف الزمان ولا لظرف المكان، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم، ولا إلى

الناس في زمن النبوة، ولا إلى جزيرة العرب وحدها، ولا إلى طبقة دون طبقة، ولا إلى لون دون لون، ولا إلى الرجل دون المرأة، ولا إلى المرأة دون الرجل، وإنما كان الرسول العظيم ينظر في هذه المعاني إلى الإنسان من حيث هو إنسان. لقد زخرت هذه المعاني بالمثل الإنسانية العليا من وحدانية خالصة، وعدالة مطلقة، ومساواة تامة، وخلق رفيع، ووقوف إلى جانب الخير، وسعي لاستئصال الشر، وحرب للفقير والبؤس، ورقى روهي يصل بالله... إن هذه الخصائص المذكورة وغيرها التي توافرت لمعاني الحديث هي التي مكنت لها من الخلود، وستبقى خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. (٣٣)

ج. أسلوب الحديث

الحديث النبوي في المنزلة من البيان، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة وفصاحة وروعة، وما أجود ما قال الجاحظ في شأنه: (هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف... واستعمل (٣٤) المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب والوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قدحف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام... لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذل الخطب الطوال بالكلم القصار... ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً، ولا أجمل منهياً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى، من كلامه صلوات الله عليه (٣٥)

وقال الجاحظ بعد أن وصف فصاحته صلواته عليه السلام:

(ولعل بعض من يتسع في العلم ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزين والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره كالأول الذي حرّم التزييد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكنايين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه). (٣٦)

مميزات أسلوب الحديث

وأسلوب الحديث يمتاز بالجزالة والوضوح والدقة في الوصف والتعبير والبعد عن التكلف، والإبداع في التصوير والحوار، والموسيقى الرائع في الألفاظ، والإيجاز في القول ومجانبة التكلف والأصالة. (٣٧)

أثر الحديث في الثقافة الإسلامية

إن تأثير الحديث النبوي في الثقافة الإسلامية يفوق كل تصور وخيال، فلقد صبغت طريقته كل فنون الثقافة العربية الإسلامية، إننا نجد أن طريقة تحقيق الأحاديث والآثار والسنن اعتمدت في كل أنواع الكتب والرسائل في المكاتب الإسلامية من أدبية وثقافية ودينية وتاريخية وغيرها إذ تعتمد على السند في إيراد أخبارها، بل إن كثيراً من العلوم ما كان ليوجد لولا الحديث، فطبقات الرجال وكتب التاريخ وكتب التراجم والسيرة والمصطلحات الشرعية الإسلامية السائرة في الحياة الإسلامية ولسانها الرسمي اللغة العربية والحديث هو الذي فتح باب الكتابة التاريخية وهيماً لظهور كتب الطبقات في كل فن، وهذا غير ما نشأ من علوم الحديث وغير مشاركتها في علوم التفسير والفقهاء مما بعث على نهضة علمية رائعة، فكل هذه ثمرة من ثمرات الحديث النبوي. (٣٨)

أثر الحديث في الأدب العربي

وأثر الحديث النبوي في الأدب العربي يمكننا تلخيصه فيما يلي:

(أ) أثره في الألفاظ والأساليب.

١- زاد الحديث النبوي ألفاظاً جديدة، كتسميته، صفر الأول، محرماً وكلفظ الزمارة للزانية، التي وردت في حديث أبي هريرة: "إن النبي ﷺ نهى عن كسب الزمارة"، وكلمة الصير بمعنى الشق في قوله ﷺ "من أطلع من صير باب فقد دمر". وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإفاضة فيه.

٢- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابية والمعاظلة والتعقيد في البيان، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.

٣- قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة النثر، وهذب أغراض الأدب وفنونه.

٤- زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي.

(ب) أثره في المعاني

وقد أثر الحديث في معاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً، فنضجت بسببه معانيهم، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم، وأصبحت المعاني كذلك يسودها الإحكام والترتيب، ويغلب عليها السمو والظهور والنزوع إلى المثل العليا والمبادئ الشريفة.

(ج) أثره في أغراض الأدب

وقد أثرت البلاغة النبوية في أغراض الأدب العربي تأثيراً كبيراً، فهجر بسببها الهجاء الكاذب، والفخر المبالغ فيه والهجاء الماجن، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية.

وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة النبوية في أغراضها فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق والإسلامية، وفي كل شريف من الأغراض، وكريم من الموضوعات. وصار الحديث النبوي كذلك محوراً لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث كما ساعد الحديث النبوي على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوها وخلودها، فهو متمم للقرآن الكريم في هذا الميكان. (٣٩)

أثر الحديث في اللغة العربية

وآثار الحديث الشريف في اللغة العربية صريحة كثيرة لا يحصى عددها ونذكر هنا من أهمها ما يلي:

- ١- إنه مفسر للقرآن الكريم ومادة غزيرة لشرحه وحفظه وبقائه، وهو يوضح إشكاله، ويفصل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه، ومنه نشأ كتاب التفسير وأبواب التفسير وتطورت كتب التفسير.
- ٢- ومنه توسعت المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص.
- ٣- وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية وعلى تعاقب الأعصار يدرسونه، ويحفظونه ويشرحونه ويستنبطونه. (٤٠)
- ٤- ومنه نشأت علوم الحديث ومصطلحه، وألفت الكتب القيمة وصنفت التصانيف والمؤلفات باللغة العربية التي أثرت عليها أثراً مؤزراً.
- ٥- ومنه نشأت الكتابة التاريخية لافي السيرة النبوية فحسب بل في الغزوات، وتراجم الصحابة والتابعين والحفاظ والرواة والمحدثين، ومما لا ريب فيه أن المسلمين أشملاً أمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف، مثل طبقات ابن سعد وأسد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال، فقلنا فتح ذلك باب الكتابة

التاريخية وهياً لظهور كتب الطبقات مما بعث على نهضة علمية رائعة. (٤١)

٦- هو خزانة ثمينة قد استمد المتأدبون من هذا الكنز في رسائلهم وأشعارهم ومنشوراتهم وأمثالهم وحكمهم، ما أضاف إليه على مر العصور رونقاً وطلاوة وما يزال هذا شأنهم إلى اليوم.

وإذا نظرنا إلى منشورات العرب قبل بعثة النبي ﷺ ما وجدناها إلا قليلة جداً بحيث لا تسد الحاجات، وهي مكونة بسجع الكهان ومزينة بالألفاظ المسجعة المحلوذة دون المعاني الواسعة، ومن منشوراتهم الأمثال والحكم والوصايا والأوصاف والأقاصيص، ويشهد التاريخ بأنهم لم يشتهروا في العالم الأدبي بمنشوراتهم كما اشتهروا بالأشعار لتضمنها بلاغة وطلاوة ورونقاً وفصاحة. ولكن بعد نزول القرآن الكريم وتلوين أحاديث الرسول صارت منشوراتهم مملوءة بطلاوة ورونق كبير، وسلك الأدباء والشعراء على منهج عال وأسلوب بارع متأثر بكلام الله تعالى، وهناك ترك الكهان السجع والألفاظ الوحشية واستعملوا الألفاظ المتينة البليغة، وحلت المنشورات المرسلية محل المسجعة، وزخر بها الأدب العربي، ففي الحديث ذخيرة ووفرة من عناصر اللغة العربية وآدابها، ويحتوي آداب الحديث بالأمثال والحكم والخطب والوصايا والأقاصيص.

فالأمثال النبوية لها أثر عظيم في الأدب العربي لأنها محتوية على أقوال جامعة مشتملة على الألفاظ الفصيحة البليغة والمعاني الواضحة، وكان لها تأثير في كتابة المنشورات وصوغ الأناشيد.

ورسائل النبي ﷺ هي كانت نموذجاً للنشر العربي المرسل وهي ثروة كبيرة أثرت في اللغة العربية بوجوه شتى. فالفاظ هذه الرسائل وكلماتها وتراكيبها جامعة مختصرة ومعانيها واضحة، ولها أهمية كبيرة في اللغة العربية وآدابها وأنه استلزم فيها ألفاظاً موافقة للمخاطبين، فتختلف عباراتها باختلاف

المخاطبين من العرب والعجم حسب الاقتضاء والاعتقاد والأحوال، فكانت رسائله نموذجاً واضحاً وقعت في قلوب الكتاب والأدباء، لذلك فإنهم سلكوا على هذا المنهج وقلدوه، واختاروا لكتاباتهم الألفاظ الفصيحة والأسلوب البليغ. إضافة على هذا فإن خطب الرسول ﷺ لها أهمية كبيرة في اللغة العربية وآدابها، وأنه خطب طوال حياته في مكة المكرمة قبل الهجرة، وفي المدينة المنورة بعد الهجرة واتسعت جنباتها بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير، وإذا لاحظنا خطب الجاهلية وجدنا فيها غلبة السجع للكهان والتفاخر بالآباء والأنساب والأحساب، والإسلام نهى عن ذلك، والرسول ﷺ لا يسجع في خطابه، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه كراهية للتشبيه بالكهان في سجعهم، ونقول إن صنعة الخطابة نهضت مع خطبة النبي ﷺ ونهض معها النثر العربي المرسل نهضة واسعة، وبها وسعت جنبات النثر الفني وزادت في معانيه ومادته بأداء البيان الكامل وأسباب البلاغة الوافرة، وهذه الخطب تصور بدقة حسن منطق الرسول في خطابته وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب وحشي. (٤٢)

٧- إن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله وقامت الخصومة السياسية ونشأت الفرق الدينية، فاستجاز أولو الأهواء الكذب على الرسول ﷺ، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم، وكل هذا لا يخلو عن قيمته اللغوية، وإضافة على هذا فإنهم أدخلوا في أحاديث الترغيب والترهيب ومن طريق الوضع في كتب الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة عن العرب والآراء المنقولة عن العجم فأثرت كلها في الخطابة والكتابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

٨- وقد جاء في الحديث أحرف غريبة من لغات القبائل إذ كان الرسول ﷺ يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم كما في الحديث "ليس من امبر امصيام في امسفر" ولأجل هذا ألف العلماء في غريبه كتباً من أهمه "كتاب غريب الحديث، للقاسم بن سلام". (٤٣)

٩- وكان عليه الصلاة والسلام على حد الكفاية في قدرته على الوضع استعمل ألفاظاً كثيرة لم تسمع العرب قبله ولم توجد في متقدم كلامها وهي تعد من حسن البيان لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة الدلالة وغرابة القرينة اللغوية في تأليفها وتنظيمها، وكلها قد صار ميراثاً خالداً في البيان العربي كقوله: "مات حتف أنفه"، "الآن حمي الوطيس"، "بعثت في نفس الساعة"، "كل أرض بسمائها"، "يا خيل الله اركبي"، "ولا تنتطح فيها عنزان"، "هذا يوم له ما بعده"، وهنا ضرب عزيز من الكلام يحتذيه البلغاء ويطبعون على قلبه. (٤٤)

١٠- يوجد كثير من الألفاظ والمصطلحات الشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم، ومنه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألون عنه، ولو كانوا ماهرين باللغة كما في الحديث، إنه ﷺ قال لأبي تميمة الهجيمي: "يا ك والمخيلة" فقال: يا رسول الله نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ فقال: عليه الصلاة والسلام: "سبل الإزار". (٤٥)

وإنما يحمل هذا على قوة فطرته اللغوية التي تتميز بالإنشاء عن سائر العرب من قومه وغير قومه على النحو الذي اختصت به ذاته الشريفة بالوحي من ربه، وكانت فطرته اللغوية في تمكينا وشملتها واستحصافها وانطوائها على أسرار الوضع، لها أثر وافر وضعاً واشتقاقاً واستجادة وبلاغة.

يقول الدكتور جرجي زيدان يوجز القول في بيان سبب أثر الحديث في الأدب العربي "جاء الإسلام بالقرآن والحديث فأخذوا بمجامع قلوبهم واستقروا في المكان الأول من أذهانهم وغير من عاداتهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم فظهر أثر ذلك في علومهم وآدابهم". (٤٦)

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلائطهم به، أو كثرت روايتهم عنه، كعلي رضي الله تعالى عنه، إذا خطب فقال: "ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار، وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتهما فأوردتهم الجنة. (٤٧)

فخلاصة القول أن النبي ﷺ كان أفصح العرب وأقدرهم على الأسلوب وأصفاهم أسلوباً، وأعظمهم تأثيراً في النفس بجوامع كلمه وروائع قوله ولا عجب في ذلك فقد تقلب عليه السلام في أخلص القبائل منطقاً، وأعذبها بياناً، ولد في بني هاشم، واسترضع في بني سعد، ونشأ في قريش وكان له من الوحي والقرآن الكريم معين لا ينضب يجدمنه مدداً للبلاغة لا ينقطع.

وأحاديثه عليه أفضل الصلوة والتسليم تدور في أغراضها حول القرآن الكريم تبين مجمله، وتفسر مشكله وتوضح مرامه وأهدافه ففي كل شأن من شؤون الدين أو الدنيا نجد بعد القرآن الكريم من أحاديثه عليه السلام نوراً وهداية وأساساً لأسمى المبادئ وأنبى الغايات.

وكان من أهم ما تتميز به أحاديثه عليه الصلوة والسلام أنها جاءت في الكثير الغالب موجزة تملّ بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وأنها جاءت من وحي الفطرة الصافية، بعيدة عما كان في نثر العصر الجاهلي من تكلف، فلا تعثر في لفظ ولا تفكك في عبارة ولا إغراب ولا جفوة، ولا تعقيد، وأنها تحمل قوة التأثير والإقناع بجمال أسلوبها، وبما اشتملت عليه من الحكمة وضرب المثل، واستخلاص العبرة، وروعة التصوير والتعبير، وبما احتوته من مجازات رائعة وتشبيهات مستمدة قوتها التعبيرية من تجربة الرسول الكريم ﷺ. ولهذا كله كانت عظمة الأثر في الأدب واللغة والعلم فقد عمد الحليث الشريف

المصدر الثاني بعد القرآن في الدراسات اللغوية والأدبية وفي نشأة علوم اللغة العربية فقد نظر إليه الأدباء نظرة تقدير وإعجاز فقلدوه في بلاغته وأساليبه التي تمتاز بالفصاحة والإيجاز.



الهوامش والمصادر

- (١) محمد عجاج الخطيب، الدكتور: أصول الحديث علومه ومصطلحه، دار الفكر، الطبعة الرابعة، القاهرة سنة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م: ص ١٩
- والدكتور محمد الصباغ: الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، وكتبه، الطبعة السابعة، المكتب الإسلامي دمشق. ص ١٤٠
- (٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، الطبعة الحادية عشرة دار المعارف، مصر. ص ٤١
- (٣) المرجع نفسه
- و محمد الصباغ (الدكتور): الحديث النبوي، ص ١٦
- (٤) المرجع نفسه: ص ١٦-١٧
- (٥) بكري شيخ أمين (الدكتور): أدب الحديث النبوي، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م دار الشروق بيروت، ص ١٠١-١٠٢
- (٦) الإسراء: ٢٩
- (٧) الأعراف: ١٩٩
- (٨) الشعراء: ٢١٥
- (٩) آل عمران: ١٥٩
- (١٠) فصلت: ٣٤

- (١١) التوبة: ١٢٨-١٢٩
- وابن عبد ربه : العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ج ٢ ص ٤١٥-٤١٦
- (١٢) أبو داؤد، الإمام: السنن، كتاب الأدب، باب ماجاء في الشعر، رقم الحديث : ٥٠٠٩، ٥٠١٢، موسوعة الحديث الشريف (الكتب الستة) دارالسلام الرياض، الطبعة الثالثة، إبريل ٢٠٠٠م، ص ١٥٩٠
- (١٣) محمد عبد المنعم الخفاجي : الحياة الأدبية، دار النهضة مصر. ص : ٥٤ .
- (١٤) الجزري، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الأستاذ طاهر أحمد الرازي و محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٦٢م، ج ١ ص ٤
- (١٥) الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، تحقيق البجاوي و أبو الفضل إبراهيم، القاهرة سنة ١٩٤٥م، ج ١ ص ٢
- (١٦) البخاري، محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح ، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه ، رقم الحديث ٩٥ ، موسوعة الحديث، ص ١١
- والترمذي ، محمد بن عيسى : الجامع ، أبواب الاستئذان والأدب، باب ماجاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئاً، رقم الحديث ٢٣٢٧، موسوعة الحديث الشريف، ص ١٩٢٦ .
- (١٧) البخاري، محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح ، كتاب المناقب، باب صفة النبي، من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ ”كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه“، رقم الحديث ٣٥٦٧، موسوعة الحديث، ص ٢٩٠
- (١٨) أبو داود: السنن ، كتاب الأدب ، باب الهدي في الكلام، رقم الحديث ٤٨٣٩، موسوعة الحديث، ص ١٥٧٨

- (١٩) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب صفة النبي، رقم الحديث ٢٥٦٨، موسوعة الحديث، ص ٢٩٠
- (٢٠) مسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب الجمعة، رقم الحديث ٨٦٧، موسوعة الحديث ص ٨١٢
- (٢١) مسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث ٢٥٦٤، موسوعة الحديث ص ١١٢٧
- (٢٢) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب الطلاق، باب اللعان وقول الله تعالى ﴿والذين يرمون أزواجهم...﴾، رقم الحديث ٥٣٠٤، موسوعة الحديث، ص ٤٥٨
- (٢٣) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿واذكر في الكتاب مريم...﴾، رقم الحديث ٣٤٢٦، موسوعة الحديث، ص ٢٨١
- ومسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث ٢٥٥٠، موسوعة الحديث ص ١١٢٥ واللفظ لمسلم
- (٢٤) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم الحديث ٢٦٥٤، موسوعة الحديث، ص ٢٠٩
- ومسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب الإيمان، رقم الحديث ٨٧، موسوعة الحديث ص ٦٩٢
- (٢٥) يدل على ذلك أحاديث كثيرة
- (٢٦) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، رقم الحديث ٢٨٤٢، موسوعة الحديث، ص ٢٢٩
- (٢٧) الرافي مصطفى صادق: وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٣ ص ٨.
- (٢٨) الحجرات: ١٢

- والحديث رواه الإمام الترمذي في جامعه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، رقم الحديث: ٢٢٧٠، موسوعة الحديث، ص ١٩٨٦
- (٢٩) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وما ينهى من الكذب، رقم الحديث ٦٠٩٤، موسوعة الحديث، ص ٥١٤-٥١٥
- ومسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب البر والصلة والأدب، رقم الحديث ٢٦٠٤، موسوعة الحديث ص ١١٣٣
- (٣٠) مسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب البر والصلة والأدب، رقم الحديث ٢٥٥٢، موسوعة الحديث ص ١١٢٦
- (٣١) مسلم بن حجاج: الصحيح، كتاب الإيمان، رقم الحديث ٥٤، موسوعة الحديث ص ٦٨٩
- والإمام أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، دار صادر بيروت، ج ٤ ص ١٨٢
- والحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله: المستدرک، المكتب الإسلامي دار صادر بيروت، ج ٢ ص ١٤
- (٣٢) الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، ج ٤ ص ٢٧٧
- والدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل: السنن، تحقيق محمد أحمد دهمان دار إحياء السنة النبوية، ج ٢ ص ٢٤٦
- (٣٣) انظر لمزيد من التفصيل: محمد الصباغ (الدكتور): الحديث النبوي، ص ٥٦-٦٤.
- (٣٤) الضمير هنا يعود إلى كلمة "الرسول" المذكورة في الكلام الذي حذفنا وأشرنا إلى حذفه بهذه النقطة.
- (٣٥) الجاحظ: البيان والتبيين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي طبعة ١٩٧٥ م، ج ٢ ص ١٧

- (٢٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٨
- (٢٧) راجع لتفصيل ميزات أسلوب النبي ﷺ وأمثلة ذلك من الحديث النبوي: محمد الصباغ (الدكتور) الحديث النبوي ص ٥٦-١١٧.
- (٢٨) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص ٤١.
- (٢٩) راجع للتفصيل: إبراهيم أبو الخشب ومحمد عبد المنعم خفاجي: تراثنا الأدبي صور من روائعه وملاحمه، دار الطباعة المحمدية الأزهر بدون التاريخ، ص ١٠٠-١٠٦.
- (٤٠) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص ٤١
- (٤١) المرجع نفسه
- (٤٢) المرجع نفسه: ص ١٢٠.
- (٤٣) أبلل فيه ال بأم كما يصنع بعض العرب من حمير، شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي: ص ٤١
- (٤٤) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ص ١٢٦
- (٤٥) المرجع نفسه: ص ٢١٧
- (٤٦) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. ج ١ ص ١٥٨
- وشوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ١ ص ١٥٨
- (٤٧) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م دار المعرفة بيروت. ص: ٩٩

